الأهرام

المصدر: الاسبوع

التاريخ: ٢١ فبراير ٢٠٠٥

«اللى ماعنده حريرى.. بيخترع حريرى»!!

من يلبس قميص الحريرى فى لبنان؟!

مات الحريرى اغتيالاً ولا نعرف من قتله على وجه الدقة.. كل الجهات قد تكون ضالعة فى قتل الرجل.. كل الجهات .. عدا جهة وحيدة نراها الآن أبعد ما تكون عما حدث.. دمشق.. ربما تكون العاصمة الوحيدة فى العالم التى لا يمكن أن تكون ضالعة فى مثل هذا العمل.. دمشق المحاصرة أمريكيًا لا يمكن أن تقتل لا رفيق الحريرى ولا وليد جنبلاط ولا مروان حمادة ولا أيا من كان..

سوريا الآن باختصار وبلا كلام كثير قد يكون مدعاة للضجر لا تستطيع أن تهش أو تنش بالتعبير المصرى.. هى مكبلة أمام الطبخة، تأكل حصتها دون تأفف ولا امتعاض وفى حصتها شىء من تلطيخ السمعة.. وشىء من تلفيق التهم وأشياء من إثارة الفتنة والحنق ضد الدولة الجارة والمهيمنة والمستعدة للخروج من لبنان ولكن بانتظار الظرف المناسب.

لذلك فإن الحديث الذى صعد فجأة على السطح فى الشارع اللبنانى.. حول مسئولية سوريا والسباب الذى خرج فى بيروت وصيدا لدمشق وللمسئولين السوريين مترافقًا مع موقع إلكترونى مبهم عنون الحدث كله بعنوان غير برىء يقول: «فعلوها وقتلوا رفيق الحريرى».. كل الزخم من الإشارات الخطأ كان فى الحقيقة يعبر عن فهم خطأ لما حدث.. سوريا الآن لا ترغب فى نصيبها فى الوطن اللبنانى.. بل تريد نصيبها فى السلام الأمريكى بمعنى إنهاء الاستهداف الأمريكى لها وتدبير قضية الجولان بلا غبن للحق السورى وعلى أساس الشرعية الدولية.. ذلك ما لا تقبله إسرائيل على كل حال.

هل معنى ذلك هو الدفاع عن سوريا بالقول إنها ليست ذلك الطراز من الدول التى قد تتبنى إجراءات عنيفة؟!.. الجواب هو لا طبعا.. سوريا تبنت فى السابق إجراءات عنيفة ومعروفة فى الداخل والخارج لكن من المضحك القول إنها أقدمت اليوم وفى وقتكم هذا وبلدكم هذا على عمل مثل هذا..

هل يعتبر الشريط الساذج وفى التعبير المصرى «العبيط» الذى يظهر شابًا فلسطينيًا «أحمد تيسير أبو عدس» بلحية طويلة وزى سلفى من ماركة «أبو حفص المصرى وأبو مصعب الزرقاوى».. وهو يلقى بيانًا يؤكد فيه المسئولية عن اغتيال الحريرى كعمل عدائى ضد المملكة العربية السعودية.. هل يعتبر ذلك الإعلان إغلاقًا للملف وحسمًا للقضية؟!.. الحقيقة أن إقدام جماعات أصولية «سنية» – وتحت تلك الكلمة ألف خط – يعتبر من الأمور غير المعقولة نظريًا.. لأن أى منتم إلى الطائفة السنية فى العالم كله يعرف أن رفيق الحريرى هو العماد الأساسى اقتصاديًا وسياسيًا لهذه الطائفة فى لبنان وأن السنة قبل الحريرى غير «السنة» بعد وجود الحريرى وغير «السنة» بعد غياب الحريرى.. هذه حقائق لا جدال حولها..

لكن هذا أيضًا لا يمنع أن يذهب بعض التكفيريين إلى إخراج الحريرى من الدين كله وعدم الاكتراث إلى دوره السياسى الذى لا جدال حول فائدته للسنة فى لبنان.

فمن قام بعملية الاغتيال جهاز على درجة عالية من التنظيم والقدرة على التحرك والمتابعة.. ولذلك فاستبعاد خيار وجود جماعة أصولية وراء العملية أمر يبدو بديهيًا.

أيضًا تأتى المعلومات التى أعلنها وزير العدل اللبنانى صباح يوم الجمعة حول رصد مجموعة غادرت مطار بيروت إلى استراليا بعد ساعات قليلة من حادث اغتيال الحريرى بلا حقائب ووجدت السلطات على مقاعدهم فى الطائرة آثارًا لمادة (TNT) المتفجرة مما يعزز خيار كونهم مرتزقة قاموا بالعملية لحساب جهة بعينها.

.. ولكن تحديد المجرم الأساسى والمدبر للعملية ليس بالأمر الصعب إذا ما تابعنا ما حدث سياسيًا وليس جنائيًا.. بمعنى التفتيش عن المستفيد النهائى مما حدث أو قد يحدث.. ذلك ما يتطلب قراءة الصورة قبل وبعد الاغتيال.

فلقد خرج رفيق الحريرى من رئاسة الحكومة قبل شهور بعد أزمة التمديد للرئيس إميل لحود.. تلك الأزمة التى سببت حالة من التوتر سيطرت على المجتمع اللبنانى بشكل بدا متصاعدًا ومنذرًا بالخطر.

وبعد اتمام التمديد حدث الخلاف بين رفيق الحريرى وإميل لحود الذى وصل إلى اعتذار الأخير عن عدم تشكيل الحكومة الجديدة تاركًا الأمر كله لعمر كرامى..

والحقيقة أن الحريرى خرج يومها ناقمًا على حلفاء دمشق.. وليس على دمشق.. وهنا فرق كبير.. وحينما اتجه الرجل إلى منزله فى منطقة قريطم فى أول أيامه خارج السلطة كان بكل بساطة يضبط ساعته على موعد الانتخابات القادمة بعد أشهر قليلة.. كان يشكل الحكومة القادمة فى عقله.. بينما يشكل كرامى حكومة اليوم المؤقتة بسبعة شهور.. أى أن الحريرى كان موقنًا بالعودة وكان يمتلك الأدوات لذلك أيضًا.

وبدأت مشاورات الحكومة لإعداد قانون الانتخابات.. وفوجئ الحريرى بإعداد قانون انتخابات جديد يقسم بيروت الدائرة التى طالما نجح فيها إلى مناطق انتخابية أصغر ورأى أن هذا التقسيم يستهدف إضعاف مرشحين بعينهم وتكهن البعض بانتقال الحريرى إلى صيدا مسقط رأسه إلا أن ذلك لم يكن ممكنًا لأسباب أبسطها وجود شقيقته «بهية» فى مقعد صيدا.. وفى تلك الأثناء كان القرار الدولى لمجلس الأمن بخصوص خروج القوات الأجنبية من لبنان يتخذ أبعادًا خطيرة.. وكانت المطالبات الأمريكية بخروج سوريا من لبنان تزداد ضغطًا على دمشق وعلى حلفائها فى بيروت.. وحدث أن خرج وليد جنبلاط من صفوف سوريا منضمًا بكل طاقته إلى صفوف المعارضة المارونية متمثلة فى لقاء قرنة شهوان.. وخرج رجال دمشق يمطرون جنبلاط بالشتائم.. وخرج هو عليهم بالاتهامات والشتائم أيضًا.. ووسط كل ذلك كان رفيق الحريرى يعقد لقاءات سرية غير معلنة مع السيد حسن نصر الله أمين عام حزب الله اللبنانى على مدار شهور ثلاث مرات كان الحريرى يجتمع بنصر الله مرتين أو ثلاثة أسبوعيًا لبحث ما يجرى فى البلد.. وكانت هذه الاجتماعات منطلق من: الأول: وطنى يهتم بمصير الجو السياسى فى لبنان والذى تحول إلى تراشق ومعركة لا طائل من ورائها خاصة بعد أن دخل عليها عامل التخوين والاتهام بالعمالة.. ثانيًا: منطلق طائفى يهتم بالمسلمين فى لبنان سنة وشيعة ولا يريد السماح بوقوع فتنة يتوقعها ويعمل من أجلها أطراف تنتظر تحت الشجرة سقوط الثمرة ناضجة وسهلة.. وكانت تأكيدات الحريرى لنصر الله كالآتى:

أولاً: لا موافقة على توطين اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان فى حالة وجوده (الحريرى) على رأس الدولة.. وبرر ذلك بأن التوطين يعقبه التقسيم.

ثانيًا: العلاقات مع سوريا استراتيجية والحديث عن هذه العلاقات لا يمكن أن يدخل فى باب العداء أو الاحتلال ولكن فى باب إصلاح الخلل.

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

ثالثًا: لا تنازل عن سلاح المقاومة ولابد من فتح حوار وطني حول الموضوع.

رابعًا: الدائرة الثانية في بيروت تضم ناخبًا سنيًا أساسيًا وناخبًا شيعيًا أساسيًا ولذلك لابد من تفاهم وطني يحمي بيروت ولبنان كله من الفتنة الطائفية بين المسلمين.

وصارت هذه التفاهمات بين رفيق الحريري وحسن نصر الله اتفاقًا غير معلن بين الطرفين الكبيرين في السياسة اللبنانية.. بعد ذلك التقى بعض رموز المعارضة برفيق الحريري وحاول معهم الراحل الكبير لملمة الأمر في ظل التدخل الدولي الذي لا يعرف أحد في أي اتجاه يسير.. وكان حديثه معهم واضحًا باتجاه اعتماد اتفاق الطائف كمرجعية وخط أحمر وسقف سياسي لكن أطراف المعارضة الماروني وزملاءهم من المعارضين للوجود السوري أظهروا رغبة واضحة في اختفاء النظام القائم في لبنان برموزه ومرجعيته.. ولكن الحريري ظل على اتصال بالطرفين ولعل ذلك الأمر بالذات كان أهم مزايا الحريري فهو كما يقول نصر الله الرجل القادر على الاتصال بالجميع في كل وقت.. وبينما كان الحريري يسعى بين الأطراف كلها كانت أول جلسة لمناقشة قانون الانتخابات الجديد في البرلمان اللبناني تنعقد وسط نقد شديد لهذا القانون من نواب المعارضة.. والكل كان ينتظر الحريري وإعلان موقفه.. وحينما دخل قاعة مجلس النواب سأله أحدهم ممازحًا: دولة الرئيس وين مقعدك في جانب المعارضة أم في جانب الموالاة؟ وقام أحد نواب المعارضة فعلا بإفساح مكان للحريري الذي اعتذر رافضًا وذهب إلى ركن يقع بين المعارضة والموالاة أسماه ركن الحريري وجلس إلى جانبه فيه النائب باسم السبع.. وذلك الموقف من رفيق الحريري لا يأتي اعتباطًا ولكنه يشكل علامة واضحة على شخصية الرجل.. ذلك ما اتضح أيضًا في آخر حديث أجراه مع جريدة «السفير» اللبنانية حينما قال: «لي معارضتي الخاصة بي وأنا لا ألتحق مع أحد وعندما اندفع لقاء البريستول (يمثل المعارضة المارونية بشكل أساسي) بعيدًا تدخلت وخفضت السقف نحو العودة إلى اتفاق الطائف، وقال أيضًا عن سوريا: (نحن الأحرص على العلاقات مع سوريا وعلى مصالحها انطلاقًا من خياراتنا الوطنية والقومية التي نلتزم بها عن قناعة).

إذن الحريري لم يكن هذا الشخص الذي يلقى نفسه في حضن الغرب في مقابل سوريا وذلك لأسباب عدة منها طبيعة الرجل.. فكل من يعرف الحريري يعرف أنه سياسي غير أيديولوجي.. أي أن مدخله للسياسة هو التفتيش عن المصلحة وتبعًا لها تتحدد الثوابت.. الحريري لم يكن ابن حزب أو حركة أو نظرية.. ولكنه كان ابنًا للواقع السياسي اللبناني بمعنى أنه كان السياسي الأكثر احتمالاً في مسألة التوافق مع دمشق.. فالأمر عنده يعود إلى ثوابت المصلحة.. ومصلحة الحريري مع دمشق لأنه يعلم أنها تعلم أنه خيارها إذا ما اشتد الحصار حول سوريا.. فالحريري هو الذي غامر بحياته بعد غزو لبنان ليحمل توقيعات نواب البرلمان اللبناني الرافضة لاتفاق (١٧ أيار) مع إسرائيل متنقلا من بيروت إلى البقاع وعبر مسالك وعرة وتحت نيران تنوعت بين إسرائيليين ولبنانيين ليصل إلى دمشق ويقدم تلك التوقيعات ثم تحملها سوريا إلى جنيف ليتم عقد المؤتمر الذي ألغي فيه اتفاق (١٧ أيار) المشئوم.. ولكن هل لم يلعب الحريري مع الخارج؟.. بالطبع حدث ولكن ظلت ثوابت المصلحة بالنسبة له في دمشق.. وبالتالي فمن السخافة القول باغتيال سوريا وبهذه الطريقة لرجل يمثل خيارًا استراتيجيًا لها في حقيقة الأمر.. وما قاله نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام أثناء أداء واجب التعازي في منزل الحريري في قريطم يعبر عن هذا الشعور السوري بالخسارة الاستراتيجية حينما قال: «هذه الجريمة استهدفت السلم والأمن ولا شك لقد شكلت زلزالاً كبيرًا من الصعب تدارك آثاره ونتائجه إلا في تماسك اللبنانيين وفي وحدتهم حول القيم والمبادئ والسلوك التي كان يتميز بها الشهيد رفيق الحريري واتهم خدام إسرائيل بعملية الاغتيال وقال: إنهم اغتالوا شعبًا بأكمله ومنطقة بأكملها. وقال: أوصيت أولاد الحريري أن يتمسكوا بمبادئ والدهم وأن يعملوا في ضوء قيمه.. قال خدام ذلك وهو يعرف أن بهاء الابن الأكبر لرفيق سيكون الخليفة السياسي الطبيعي لوالده إذا لم تعترض الأم على ذلك في أي حال.

ثم جاء الاستدعاء الأمريكي لسفيرتهم في دمشق وجاءت تصريحات دونالد رامسفيلد ضد سوريا.. وظهر جليًا أن الكل يريد استغلال الموضوع.. واتضح أن المعارضة اللبنانية تريد أن تلبس قميص الحريري لذلك حاول حسن نصر الله تفويت الفرصة حينما كشف في خطابه بعد الحادث عن مداولاته مع الحريري وكيف أن الرجل لم يكن يحمل العداء نفسه لسوريا وأنه ليس في نفس المركب.. والحدث الطاغي الآن هو اغتيال الحريري.. لكن الحدث المنتظر غدًا سيكون على ما يبدو اغتيال بلد بأكمله اسمه سوريا.. وإزاء خطورة حدث كهذا نسأل الله ألا يقع لابد من المصارحة على قاعدة أن صديقَكَ من صدَقَك لا من صدقك.. فالوضع غاية في الصعوبة وقواعد اللعبة بين دمشق وواشنطن انتهكت بشدة ولم تعد لهذه اللعبة قواعد.. دمشق حاولت بكل جهدها إعلان حسن نيتها تجاه ١٥٠ ألف جندي أمريكي في العراق واستطاعت إغلاق حدودها تمامًا.. لكن اتهامات رامسفيلد تتجاهل كل ذلك والمقصلة الأمريكية تستعد.. لذلك خرج على السوريين جملة من الناصحين واجتهدوا في إسداء النصح الذي يبدو أغلبه مرفوضًا من دمشق.. البعض ذهب إلى ضرورة الانسحاب فورًا من لبنان وترك الأمر للبنانيين.. البعض قال محاسبة الأجهزة الأمنية السورية لأن ما حدث يعد تقصيرًا منها في ظل تواجد قواتها في لبنان.. ولعل الحدث اللافت هو إحالة اللواء حسن خليل قائد الاستخبارات العسكرية السورية إلى التقاعد بعد يوم واحد من اغتيال الحريري وتعيين نائبه اللواء آصف شوكت.. ولعل هذا دليل نظري آخر على عدم وجود يد سورية.. إلا أن المعارضين اللبنانيين المجتمعين في فندق البريستول بعد اغتيال الحريري يصرون في انتهازية سياسية لها ما يفسرها على ذهاب السلطة إلى الجحيم وعلى خروج القوات السورية فورًا ويقولون لا حوار مع أحد.. لماذا نتحاور؟!.. لقد انطلقت العجلة ولن يستطيع أن يوقفها أحد..

ولكن ما الواجب فعله في تلك اللحظة؟! إن تحركًا سوريًا باتجاه لبنان مهما كان في تلك اللحظة سيكون مثل الفيل الذي يتحرك في محل الخزف.. كلما تحرك تحطم شيء ما.. وإذا وقفت سوريا في مكانها فلن يوقف ذلك الآخرين عن التحرك.. إنه المأزق بدون الفرص وأزمة المخاطر والطريق الممهد بالألغام والمفضي إلى المجهول بمعنى أنه حتى ولو انسحبت سوريا من لبنان فستكون خطوة في المجهول للجانبين.. وسيبقى دم «رفيق الحريري» هو الهدية الكبرى التي تلقتها المعارضة في لبنان لحساب أمريكا وإسرائيل في واقع الأمر..

لقد كان اللبنانيون يقولون في عامية بسيطة وهم يرسلون أولادهم إلى التعلم في الخارج على نفقة مؤسسة الحريري أو أثناء تلقي معونات التموين والملابس في بداية كل فصل من مؤسسات الرجل «اللي ما عنده حريري.. بيشتري حريري».. وأمريكا وإسرائيل تنظران الآن إلى ما أسفر عنه اغتيال الرجل ولسان حالها «اللي ماعنده حريري.. بيخترع حريري».

محمود التميمي

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية